الأمية في المنظور الإسلامي

بقلم/ مصطفى بن عيد الصياصنة[1]

كثيرة هي المفاهيم التي تحتاج اليوم إلى تصويب..

ومن هذه المفاهيم الكثيرة: مفهوم الأمية.

فلو أن مسلماً وقف اليوم قائلاً: (نحن ـ أمة الإسلام ـ أمة أمية)، لأفزع مثل هذا القول منه كثيرين، وقد تأخذ العصبية بعضهم، فيرفعون عقيرتهم في وجهه صائحين:

أوَ يقولُ مثل هذا الكلام ـ اليوم ـ عاقل؟

أوَ بقي ـ ونحن على أعتاب القرن الحادي والعشرين ـ من تسمح له نفسه، أن يتلفظ بمثل هذه الكلمات؟!! يحارب الإسلام (الأمية) بكل صورها وأشكالها؟!!

أوَ لم يسع المسلمون ـ ولايزالون ـ إلى القضاء على هذه الآفة، بمختلف الوسائل والأساليب؟؟ ونحن بدورنا نقول لمثل هؤلاء الثائرين الغاضبين:

نعم، وألف نعم.

إن الإسلام حارب الأمية ـ الأمية التي بمعنى الجهالة ـ ولايزال وليس هناك في الدنيا عاقلٌ ـ لديه أدنى ذرة من عقل ـ يجرؤ على إنكار شيء من ذلك.

أسمعتم - ذات يوم - مسلماً يقول: دعونا نرسف في أغلال

(١) ورد لكاتب البحث ترجمة في العدد ٣٩ ص ٣٤٥ .

الجهالة، ونعب من أوحال التخلف، فنحن نرفض العلم، ونأبى الحضارة، ونمقت شموس المعرفة والثقافة.

إننا لن نختلف على شيء من ذلك، ولا يمكن لمثل هذا أن يكون.. ولكن..

لكن.. على رسلكم أيها القوم..

لقد ظلمتم (الأمية) حين جعلتموها لا تعني سوى الجهالة والغفلة والتخلف.

حين صورتموها للناس غولاً بشعاً، وسرطاناً قاتلاً، وداءً فتاكاً، يشل حركة الفرد ويعطل مسيرة الأمة عن سلوك مدارج التقدم والمدنية والرقي.

حين حجّمتم مفهوم العبارة، وقزمتم مدلولها، بل وألزمتموها أن تلبس ثوباً واحداً، هو الثوب الذي فرضتموه عليها، وأجبرتموها أن تزهد في بقية مالها من الأثواب الجميلة القشيبة البراقة.

لقد أخذتم بهذا المفهوم الضيق الضحل، ووقفتم عنده لا تتجاوزونه، وضربتم بكل ما لهذه الكلمة من مدلولات أخرى يزخر بها كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ ولغة العرب، عرض الحائط، غير آبهين بواحد منها على الإطلاق.

هلا أتيتم معنا إلى كتاب الله تعالى، وإلى أحاديث المصطفى ﷺ، وإلى كتب الأصول، لنرى ما لهذه العبارة، وماعليها، فنحدد الرؤية، ونستوضح المفهوم، ونستبين الصواب.؟

من أجل هذا كله، كانت لنا هذه الوقفة، إضاءة بسيطة

متواضعة، على طريق توضيح الرؤية، وجلاء الصورة، وإزالة بعض ماعلق بمرآة الحق والصواب، من غبش وقتام وغبار، بعيداً عن كل أساليب المبالغة، وطرق التهويش، غير عابئين ـ إن شاء الله تعالى ـ بِلَغَطِ العابثين، وصولة الحمقى، وزعيق جحافل لبلاب العلم وفلول المستهترين.

النبي الأمي :

وردت النصوص القرآنية الكريمة، تصف نبينا محمداً ﷺ بأنه (النبي الأمي)، جاعلة أميته ـ عليه الصلاة والسلام ـ دليلاً على صدق نبوته، وشاهداً حياً لا جدال فيه، على قوة المعجزة التي أجراها الله تبارك وتعالى على يديه، ومبعث فخر واعتزاز له ولأمته ﷺ إلى قيام الساعة، ويكفيه صدقاً وفخراً عليه الصلاة والسلام، أنه ـ رغم كونه أمياً لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ـ كان يتلو على الناس كتاب الله الكريم، وبالنظم الذي أُنزل عليه، دون تغيير أو تبديل، دون زيادة أو نقص، في حين أن أكثر الخطباء فحولة ـ من العرب ـ وأبلغهم فصاحة وبياناً، كان إذا ارتجل خطبةً، ثم أعادها، زاد فيها ونقص، وغيّر وبدّل، وعجز عن أن يأتي بها ـ مرة ثانية ـ على نظمها الأول، رغم كونها من إبداعه ونتاج فكره وجهده، وكونه قارئاً مجيداً وكاتباً، فجاء حفظ الله تعالى لنبيه الأمي الكريم ﷺ، من أن يقع في شيء من ذلك دليلاً آخر ناصعاً على صدقه في تبليغه ما أوحي إليه من ربه تبارك وتعالى.

قال تعالى:

(أ) ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١)

(ب) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٢)

(ج) ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٣)

فهذه الآيات تصف النبي ﷺ بأنه (النبي الأمي)، وأن صفته هذه مذكورة في الكتب السماوية السالفة، وأهل الكتاب يعرفونها فيه عن طريق كتبهم، وقد بشرهم ببعثته أنبياؤهم، وأمروهم بمتابعته والإيمان به، وأن صفته هذه لم تزل في كتبهم، يعرفها علماؤهم وأحبارهم.

قال الإمام الطبري رحمه الله: (لا يُعلَمُ من رسول وصف

(١) سورة الأعراف، الآيتان ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٨ .

(٣) سورة الجمعة، الآية ٢ .

بهذه الصفة ـ أعني الأمي ـ غير نبينا محمد ﷺ)[1].

وقد فسر الإمام الشوكاني المراد بـ ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ في هذه الآيات فقال: (والأمي: إما نسبة إلى الأمة التي لا تكتب ولا تحسب وهم العرب، أو نسبة إلى الأم، والمعنى أنه باق على حالته التي ولد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، وقيل: نسبة إلى أم القرى وهي مكة)[2].

وفي موضع آخر من تفسيره قال: (أخرج ابن أبي حاتم عن النخعي في قوله: ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ قال: كان لا يقرأ ولا يكتب، وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال: (هو نبيكم ﷺ كان أمياً لا يكتب)[3].

وقال أبو السعود في تفسيره: (هو الذي لم يمارس القراءة والكتابة، ومع ذلك جمع علوم الأولين والآخرين)[4]. وقد ورد في القرآن الكريم مايبين المراد بأميته ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[5].

فهذه الآية تبين أن المراد بـ ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾: الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، ولولا أميته ﷺ لارتاب الجهلة بما أُنزل إليه، ولقالوا: إنما أوتيه عن الكتب التي هو يقرؤها، فلما كان أمياً لا

---

(١) تفسير الطبري ٩/ ٥٦، طبعة ١٣٩٨هـ، دار الفكر ببيروت، وبهامشه تفسير النيسابوري.
(٢) فتح القدير للشوكاني ٢/ ٢٥٢، طبعة ١٤٠١هـ، دار الفكر ببيروت.
(٣) فتح القدير ٢/ ٢٥٤.
(٤) تفسير أبي السعود ٢/ ٤١٤، تحقيق عبدالقادر عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
(٥) سورة العنكبوت، الآية ٤٨.

يقرأ ولا يكتب، لم يكن هناك موضع ريبة، ولا محل للشك أبداً بل صار إنكار من أنكر مجرد عناد وجحود، بلا أدنى شبهة معقولة.

قال الطبري في تفسيرها: (ما كنت يا محمد تقرأ من قبل هذا الكتاب الذي أنزلته إليك، ولم تكن تكتب بيمينك، ولكن كنت أمياً).

ثم نقل عن ابن عباس قوله: (كان نبي الله ﷺ أميا، لا يقرأ شيئاً ولا يكتب).

وعن قتادة: (كان نبي الله لا يقرأ كتاباً قبله، ولا يخطه بيمينه، كان أمياً، والأمي الذي لا يكتب)[1].

وقال ابن كثير: (قد لبثت في قومك يامحمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً، لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده، بل كان له كُتَّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم)[2].

كما ورد في الحديث الصحيح، ما يثبت أميته ﷺ، بمعنى: عدم قدرته على الكتابة، أو القراءة من كتاب:

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه: (أن النبي ﷺ لما أراد أن يعتمر، أرسل إلى أهل مكة، يستأذنهم ليدخل مكة، فاشترطوا عليه

---

(١) تفسير الطبري ٢١/٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٥٧، بإشراف خليل الميس، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت.

أن لا يقيم بها إلا ثلاث ليال، ولا يدخلها إلا بجلبَّان السلاح، ولا يدعو منهم أحداً.

قال: فأخذ يكتب الشرط بينهم علي بن أبي طالب، فكتب: هذا ماقاضى عليه محمدٌ رسول الله، فقالوا: لو علمنا أنك رسول الله لم نمنعك ولتابعناك، ولكن اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله، فقال: «**أنا والله محمد بن عبدالله، وأنا والله رسول الله**» قال: وكان لا يكتب قال: فقال لعلي: امح رسول الله، فقال علي: والله لا أمحاه أبداً، قال: فأرنيه، قال: فأراه إياه، فمحاه النبي ﷺ بيده)[1].

فقول الصحابي الجليل: (وكان لا يكتب) دليل على عدم معرفته ﷺ لفن الكتابة، وفي قوله ﷺ لعلي: «أرنيه» دليل على عدم تمكنه من قراءة ماكتب، وإلا لكان بادر إلى محو العبارة التي يريد محوها، من غير أن يطلب من علي رضي الله عنه أن يحدد له موضعها، ويدله عليها.

وقد أجمعت الأمة سلفاً وخلفاً، على أن النبي ﷺ كان أمياً، لا يحسن الكتابة، ولا يقرأ من كتاب، وكان ذلك معروفاً عنه ﷺ بالعلم المستفيض في عصره، بين قومه، وبين غيرهم ممن جاورهم أو خالطهم وكان بعيداً عنهم، بحيث يستحيل معه إنكار ذلك، كما وكان ذلك معروفاً عنه ﷺ، لدى أهل الديانات الأخرى، لما

---

(١) أخرجه البخاري ٣١٨٤، في الجزية، والموادعة: المصالحة على ثلاثة أيام، واللفظ له، مسلم ١٧٨٣، في الجهاد والسير، صلح الحديبية، أحمد ١/ ٨٦ و٤/ ٣٣٠ و٥/ ٢٩١.
أمحاه: لغة في أمحوه، و جُلبَّان السلاح: السلاح مغموداً في جرابه.

ذكرته لهم عنه كتبهم المتقدمة، وأشاعه بينهم على مر العصور علماؤهم وأحبارهم.

ولكونه ﷺ أمياً لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، فقد ثبت أنه كان اتخذ لنفسه كتبة، يكتبون بين يديه الوحي، كما كانوا يكتبون له رسائله إلى الملوك وغيرهم.

ومن أشهر كتاب الوحي: الخلفاء الراشدون الأربعة، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، ومعاوية بن أبي سفيان، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

أما ماذهب إليه بعض العلماء، من أنه ﷺ كان قد أحسن الكتابة أواخر حياته، اعتماداً على الأثر الذي أخرجه ابن أبي شيبة، ونصه: (ما مات رسول الله حتى قرأ وكتب). فهو مذهب شاذ ممخرق، لا يعضده دليل، ولا تدعمه حجة، ولا يسنده واقع حال.

ذلك أن هذا الأثر موضوع، حكم عليه من العلماء الشوكاني والسيوطي والألباني بالوضع، كما نقلوا قول الطبراني فيه: (هذا حديث منكر، أبو عقيل - رَاويهِ - ضعيف الحديث، وهذا معارض لكتاب الله)(١).

وقال الحافظ ابن كثير فيه: (وما أورده بعضهم من الحديث، أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة، فضعيف لا أصل له)(٢).

---

(١) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني رقم ١٠١٥، ذيل الموضعات للسيوطي ص٥، السلسلة الضعيفة للألباني رقم ٣٤٣.

(٢) تفسير ابن كثير ص/٣٥٧.

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) عن الجمهور قولهم بضعفه[1].

وممن ذهب هذا المذهب الشاذ من العلماء: أبو الوليد الباجي، وأبو ذر الهروي، وأبو الفتح النيسابوري، وآخرون من علماء إفريقية وفقهائها المتأخرين.

وبالإضافة إلى اعتمادهم هذا الأثر الموضوع، في تقريرهم ماذهبوا إليه، فقد اعتمد بعضهم على ماورد في صحيح البخاري، عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أنه قال:

(لما اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة، فأبى عليه أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة، حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب، كتبوا: هذا ماقاضى عليه محمد رسول الله، قالوا: لا نقر لك بهذا، لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن أنت محمد بن عبدالله، فقال: أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبدالله، ثم قال لعلي: امح رسول الله، قال علي: لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب ـ وليس يحسن يكتب ـ فكتب: هذا ماقاضى محمد بن عبدالله، لا يُدخل مكة إلا السيف في القراب)[2].

قالوا: هذا الحديث يدل ظاهره على أن النبي ﷺ كتب الكتاب بيده الشريفة، لما امتنع علي رضي الله عنه عن الكتابة.

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني ٧/ ٥٧٥، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، دار الريان، القاهرة.

(٢) أخرجه البخاري ٤٢٥١ في المغازي، عمرة القضاء.

والصحيح أن هذا الحديث ليس على ظاهره كما قال الألباني[١] بل هو من باب (بنى الأمير المدينة) أي: أمر ببنائها.

وقد نقل الحافظ في (الفتح) عن السهيلي قوله: (والحق أن معنى قوله: (فكتب) أي: أمر علياً أن يكتب).

ثم وافقه الحافظ قائلاً: (ويجاب عن قصة الحديبية، بأن القصة واحدة، والكاتب فيها علي، وقد صرح في حديث المسوّر بأن علياً هو الذي كتب، فيحمل على أن النكتة في قوله: (فأخذ الكتاب - وليس يُحسن يكتب - فكتب) لبيان أن قوله: (أرني إياها) أنه ما احتاج إلى أن يريه موضع الكلمة التي امتنع علي من محوها، إلا لكونه كان لا يحسن الكتابة، وعلى أن قوله بعد ذلك: (فكتب) فيه حذف تقديره: فمحاها فأعادها لعلي فكتب، وبهذا جزم ابن التين، وأطلق (كتب) بمعنى: (أمر بالكتابة)، وهو كثير، كقوله: كتب إلى قيصر، وكتب إلى كسرى)[٢].

والذي يبدو أن بعض القائلين بإتقان النبي ﷺ الكتابة، إنما أراد أنه أتقنها للحظة واحدة، وهي تلك اللحظة التي أمسك فيها بكتاب صلح الحديبية من علي، ومحا وغير، وأن ذلك إنما كان على سبيل جريان المعجزة الخارقة على يديه عليه الصلاة والسلام، أو أنه إنما كتب اسمه فقط، رغم كونه أمياً، كعادة الكثير من الأميين، الذين يعرفون رسم أسمائهم، ولكن لو طلب إليهم أن يكتبوا غير ذلك لما استطاعوا، فلا يخرجهم ذلك عن كونهم أميين، لا يجيدون

---

(١) السلسلة الضعيفة للألباني ١/٣٤٩، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ المكتب الإسلامي، بيروت.
(٢) فتح الباري ٧/٥٦٧.

قراءة ولا كتابة.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

(من زعم من متأخري الفقهاء، كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه، أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية: «**هذا ماقاضى عليه محمد بن عبدالله**»، فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري: (ثم أخذ فكتب)، ولذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب، على من قال بقول الباجي، وتبرَّؤوا منه، وأنشدوا في ذلك أقوالاً، وخطبوا في محافلهم، وإنما أراد الرجل أعني الباجي فيما يظهر عنه أنه كتب ذلك على وجه المعجزة، لا أنه كان يحسن الكتابة)[1].

وقد روى الحافظ في الفتح قصة الباجي، وما ذهب إليه، وما كان له مع العلماء في زمنه، بسبب ماقاله، فقال:

(وقد تمسك بظاهر هذه الرواية - أي رواية البخاري - أبو الوليد الباجي، فادعى أن النبي ﷺ كتب بيده، بعد أن لم يكن يحسن يكتب، فشنع عليه علماء الأندلس في زمانه، ورموه بالزندقة، وأن الذي قاله يخالف القرآن، حتى قال قائلهم:

برئت ممن شرى دنيا بآخرة ... وقال إن رسول الله قد كتبا

فجمعهم الأمير، فاستظهر الباجي عليهم بما لديه من المعرفة، وقال للأمير: هذا لا ينافي القرآن، بل يؤخذ من مفهوم القرآن، لأنه قيد النفي بما قبل ورود القرآن، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٧ .

ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾[١]، وبعد أن تحققت أميته، وتقررت بذلك معجزته، وأمن الارتياب في ذلك، لا مانع من أن يعرف الكتابة بعد ذلك، من غير تعليم، فتكون معجزة أخرى).

ثم قال الحافظ مخففاً من شدة وطء الحملة على الباجي وجماعته: (وعلى تقدير حمله - أي حديث البخاري - على ظاهره، فلا يلزم من كتابة اسمه الشريف في ذلك اليوم - وهو لا يحسن الكتابة - أن يصير عالماً بالكتابة، ويخرج من كونه أمياً، فإن كثيراً ممن لا يحسن الكتابة يعرف تصور بعض الكلمات، ويحسن وضعها بيده، وخصوصاً الأسماء، ولا يخرج بذلك عن كونه أمياً، ككثير من الملوك، ويحتمل أن يكون جرت يده بالكتابة حينئذ - وهو لا يحسنها - فخرج المكتوب على وفق المراد، فيكون معجزة أخرى، في ذلك الوقت خاصة، ولا يخرج بذلك عن كونه أمياً، وبهذا أجاب أبو جعفر السمناني، وتبعه ابن الجوزي).

ثم رد على السهيلي قوله، بأن جريان الكتابة على يده - عليه الصلاة والسلام - في ذلك الوقت فقط، يعارض القول بمعجزته ﷺ، المتمثلة في أميته:

(وفي دعوى أن كتابة اسمه الشريف فقط على هذه الصورة، تستلزم مناقضة المعجزة، وتثبت كونه غير أمي نظرٌ كبير)[٢].

قلت: وفيما ذهب إليه أصحاب هذا الاجتهاد تمحل واضح، ووقوف متصلب عند ظاهر النص، كان العلماء في غنى

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٨ .

(٢) فتح الباري، ٧/ ٥٧٥ - ٥٧٦ .

عن الوقوف - طويلاً - عنده واللجوء إلى البحث عن مسالك لتأويله، وتكلف الوجوه البعيده لتوجيهه، وخاصة: مع عدم وجود نص آخر يسنده أولاً، بل ووجود رواية أخرى للحديث توضح ما أشكل في عبارة هذه الرواية، التي جعلوها عمدة نقاشهم ومدار استنباطهم، وهي عند البخاري أيضاً وعند غيره، وبالسند الصحيح والدلالة الواضحة ثانياً، هذا مع إجماع الأمة على القول بأميته ﷺ ثالثاً، فكان ذلك كله كافياً لحسم النقاش في المسألة، وعدم التوسع في ولوج باب التأويل، والاستفاضة في اختلاق الوجوه المتمحلة، والتي نحن في غنى عن الانجرار إلى غمارها.

والآن ما الحكمة الكامنة وراء كونه ﷺ بُعِثَ أمياً، بهذه الرسالة الخاتمة؟ إن هناك حكماً كثيرة ولاشك، تبعثها الأجواء العامة، التي تشعها النصوص المتحدثة عن أميته ﷺ، في نفس مستطلعها.

ونحن إن كنا لا نستطيع حصر هذه الإشعاعات، فإن بإمكاننا أن نسجل مابرز - واضحاً جلياً - منها:

١- المبالغة في توكيد ظاهرة جريان المعجزة على يديه ﷺ، فهو مع كونه رجلاً أمياً، لا يجيد كتابة، ولا يقرأ مكتوباً، ولم يسبق له طيلة حياته أن قرأ كتاباً مسطوراً، فقد جاء بما أعجز كافة العرب - بل كافة البشر أجمعين - عن أن يأتوا بشيء من مثل ما أتاهم به، والمعجزة الباهرة لاتزال مستمرة شاخصة قائمة، ومع استمرارها يستمر العجز البشري - حيالها - ماثلاً، لا يتقدم - قيد أنملة - أو يتزحزح.

إنه كلام الوحي المعجز - إلـهياً كان أو نبوياً - فيه من الحكم البالغة، وفيه من الإخبار عن الغيب، والإنباء عما كان وسيكون، وفيه من النظم والتوجيهات، ما يشمل جميع نواحي حياة البشر، بمختلف مشاربها وتوجهاتها، بحيث لا يصلح لهم سواها، ولا فلاح لهم إلا بها. وكل ذلك يأتي به رجل أمي - في مثل حال محمد ﷺ - ما قرأ يوماً كتاباً، ولا خط بيده سطراً، ثم لا يكون ذلك في الذروة من شامخ المعجزات؟ والقمة من ساطع الآيات الباهرات؟

٢ - موافقة ما ساقه ركب الأنبياء السابقين إلى أممهم، من بشارات مقدمه ﷺ، رحمة عامة لكافة البشرية، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾[1].

فالأنبياء بشروا أممهم بمقدم محمد عليه الصلاة والسلام، وذكروه لهم بأوصافه التي تميزه، وأوضح هذه الأوصاف وأجلاها. أنه (النبي الأمي).

٣ - ليكون في أميته مشاكلاً لحال عامة قومه، مماثلاً لغالب أفراد أمته، الذين بعث فيهم، وعندما يكون من جنسهم ومن جملتهم، يكون أقرب إلى موافقتهم، والالتصاق بهم، والنفوذ إلى أعماق نفوسهم. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[2]. وهذا ما أفادته لفظة (منهم) في هذه الآية.

٤ - لنفي سوء ظن مفاده: أنه تعلم ماجاء من الكتب التي

(١) سورة الأعراف، الآية ١٥٧ .

(٢) سورة الجمعة، الآية ٢ .

قرأها، فلما كان أمياً، لا يقرأ مسطوراً ولا يكتب سطراً، فسد مثل هذا الظن، وبطلت حجج مثيريه، وسحبت جميع البسط، من تحت أرجل المتشككين والمرجفين والمبطلين.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾[1].

ومع كل هذا، فقد اتهموه ﷺ باكتتاب مايتلو عليهم، وهم يعرفونه أميا لا يعرف كتابة: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾[2].

أرأيت ـ بعد هذا ـ إلى سماجتهم وبجاحتهم وائتفاكاتهم، إلى أي حد وصلت، وأي مبلغ بلغت؟ إنها الغواية، التي إذا تغلغلت في القلب، أعمت البصر، وأصمت السمع، وعطلت العقل والذهن.

أمته ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمة أمية:

وإذا كان محمد ﷺ نبياً أمياً، بنصوص الكتاب والسنة وانعقاد الإجماع وشهادة واقع الحال، فإن أمته ﷺ كانت أمة أمية ولاتزال، وهذا وصفها في كتاب الله عز وجل، وفي سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

(أ) قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٨ .

(٢) سورة الفرقان، الآية ٥ .

مُّبِينٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[١] .

فالأميون ـ هنا ـ هم العرب، يمتن الله عليهم، بأنه بعث إليهم رسولاً من جنسهم ومن جملتهم، يتلو عليهم آيات الله، ويعلمهم الكتاب والحكمة، بما يؤهلهم لقيادة البشرية، والسير بها إلى شاطىء الهداية والنجاة.

قال الطبري: (الأميون: هو العرب، وعن مجاهد قال: هم العرب، وعن قتادة قال: كان هذا الحي من العرب أمة أمية، ليس فيها كتاب يقرؤونه، فبعث الله نبيه محمداً ﷺ رحمة وهدى يهديهم به)[٢] .

وقال ابن كثير: (الأميون: هم العرب، كما قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾[٣]، وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر)[٤] .

وقال الشوكاني: (المراد بالأميين: العرب، من كان يحسن الكتابة منهم ومن لا يحسنها، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب، والأمي في الأصل: الذي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، وكان غالب العرب كذلك)[٥] . ونقل القرطبي عن ابن عباس قوله: (الأميون: العرب كلهم، من كتب منهم ومن لم يكتب، لأنهم لم يكونوا أهل

---

(١) سورة الجمعة، الآيتان ٢ ، ٣ .

(٢) تفسير الطبري ٢٨/ ٦١ .

(٣) سورة آل عمران، الآية ٢٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٣١٧ .

(٥) فتح القدير للشوكاني ٥/ ٢٢٤ .

كتاب)[1].

وقال سيد قطب: (قيل: إن العرب سموا أميين، لأنهم كانوا لا يقرؤون ولا يكتبون في الأعم الأغلب، واقتضت حكمة الله أن يكون هذا النبي من العرب، من الأميين، إذ علم الله أن يهود قد فرغ عنصرها من مؤهلات القيادة الجديدة الكاملة للبشرية، وأنها زاغت وضلت، وأنها لا تصلح لحمل الأمانة، بعد ماكان منها في تاريخها الطويل)[2].

وقد ورد في بيان سبب نزول هاتين الآيتن، مارواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (كنا عند رسول الله ﷺ، حين أُنزلت سورة الجمعة، فتلاها، فلما بلغ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ قال له رجل: يارسول الله، من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فلم يكلمه حتى سأل ثلاثاً، قال: وسلمان الفارسي فينا، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان، فقال: والذي نفسي بيده، لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من هؤلاء).

وفي رواية: (لو كان الدين عند الثريا، لذهب به رجل من فارس ـ أو قال: من أبناء فارس ـ حتى يتناوله)[3].

ومنطوق هذا الحديث يفيد: أن المراد بـ(الأميين) ـ في هاتين الآيتين ـ هم العرب، وبـ(الآخرين منهم): الفرس، أو العجم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/ ٩١، الطبعة الثانية، ١٩٥٤م، دار الكتب المصرية.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٦٤، الطبعة الثامنة، ١٣٩٩هـ، دار الشروق.

(٣) رواه البخاري ٤٨٩٧ في تفسير سورة الجمعة، باب قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾، مسلم ٢٥٤٦ في فضائل الصحابة، فضل فارس، الترمذي ٣٩٢٩ في المناقب في فضل العجم.

عامة.

قال الحافظ ابن كثير: (ففي هذا الحديث دليل على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس؛ لأنه فسر قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ بفارس، ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم، وقال مجاهد: هم الأعاجم وكل من صدق النبي ﷺ من غير العرب)[1].

وقال الشيخ محمد أمين الشنقيطي: (الأميون: العرب، وصح عن النبي ﷺ مايدل على أن قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ نزلت في فارس قوم سلمان)[2].

(ب) وقد كان اليهود يسمون العرب (الأميين)، ويقصدونهم بهذا الاسم في أحاديثهم، وقد حكى القرآن الكريم ذلك عنهم، قال تعالى: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3].

والمفسرون على أن المراد بالأميين ـ في هذه الآية ـ العرب.

قال الطبري: (يعني بذلك جل ثناؤه، من استحل الخيانة من اليهود وجحود حقوق العرب التي هي له عليه، فلم يؤد ما ائتمنه العربي عليه إليه، إلا مادام عليه متقاضياً مطالباً، من أجل أنه يقول: لا حرج علينا فيما أصبنا من أموال العرب ولا إثم).

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٣١٨، وانظر قول مجاهد في تفسير الطبري ٢٨/ ٦٢ .

(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشنقيطي ٨/ ١٩١ ـ ١٩٢، طبعة ١٤٠٣هـ .

(٣) سورة آل عمران، الآية ٧٥ .

ونقل عن قتادة قوله: (قالت اليهود: ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل).

وعن السدي: (يقال له: ما بالك لا تؤدي أمانتك؟ فيقول: ليس علينا حرج في أموال العرب، قد أحلها الله لنا)(١).

وقال ابن كثير: (وإنما حملهم على جحود الحق، أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج، في أكل أموال الأميين، وهم العرب، فإن الله قد أحلها لنا)(٢).

وقال الشوكاني: (قالت اليهود: ليس علينا فيما أصبنا من مال العرب سبيل)(٣).

ونقل القرطبي مايفيد أن المراد بالأميين ـ في هذه الآية ـ (المسلمون) عامة، قال رحمه الله: (قيل: إن اليهود كانوا إذا بايعوا المسلمين يقولون: ليس علينا في الأميين سبيل، أي: حرجٌ في ظلمهم، لمخالفتهم إيانا، أو ادَّعوا أن ذلك في كتابهم، فأكذبهم الله عز وجل)(٤).

أما سيد قطب فيرى أن مراد اليهود بكلمة (أميين): كل من كان غير يهودي، وإن كان استعمال هذه الكلمة ـ في هذه الآية - يراد به العرب.

قال رحمه الله: (إنهم يقولون هذا القول، ويجعلون للأخلاق

(١) تفسير الطبري ٣/٢٢٦.
(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٢٢.
(٣) فتح القدير للشوكاني ١/٣٥٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/١١٨.

مقاييس متعددة، فالأمانة بين اليهودي واليهودي، أما غير اليهود - ويسمونهم الأميين وكانوا يعنون بهم العرب - وهم في الحقيقة يعنون: كل من سوى اليهود، فلا حرج على اليهود في أكل أموالهم وغشهم وخداعهم والتدليس عليهم واستغلالهم، بلا تحرج من وسيلة ولا فعل ذميم)[١].

(جـ) وقد ورد في الحديث الشريف، مايفيد وصف (الأمة المسلمة) بأنها (الأمة الأمية):

فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنا أمة أمية: لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا، يعني مرة تسعة وعشرين، ومرة ثلاثين**».

وفي رواية مسلم: «**الشهر هكذا وهكذا، وعقد الإبهام في الثالثة، والشهر هكذا وهكذا، يعني تمام الثلاثين**»[٢].

ومن الجلي - هنا - أن كون هذه الأمة لا تكتب ولا تحسب تفسير لاتصافها بصفة (الأمية)، غير أن التفسير الذي يأتي على بيان بعض جوانب المفهوم، لا التفسير الذي يحاول الإحاطة بالمفهوم على سبيل الحصر والتحديد.

فالرسول الكريم ﷺ أراد - في هذا الحديث - أن يذكر ببعض خصائص أمية أمته، لا أن يأتي بتعريف جامع مانع لمفهوم (الأمة

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٤١٧ .

(٢) البخاري ١٩١٣، في الصوم، قول النبي ﷺ: «لا نكتب ولا نحسب»، مسلم ١٠٨٠ في الصوم، وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، أبو داود ٢٠٣٣، ٢٣١٩، في الصوم، الشهر يكون تسعة وعشرين، النسائي ٢٠٢١ و٢٠٢٢ في الصوم، ذكر الاختلاف على يحيى بن أبي كثير.

الأمية).

وقد ذكر عليه الصلاة والسلام من صفات هذه الأمة الأمية، أنها لا تكتب ولا تحسب، مشيراً بأصابع يديه الشريفتين إلى عدد أيام الشهر، ليبين بشكل واضح وجلي أنه قد رفع عن أمته إصر التكلف والغلو والتمحل، وأنها مأمورة بالأخذ بالأيسر والأسهل والأسمح، والذي لا يخرج - في غالبه - عن طوق عامة الناس وأبسطهم.

فهذه الأمة، من أول خصائصها التي صارت بها (أمة أمية)، أنها لاتزال على ماولدتها عليه أمهاتها، من السير على نهج الفطرة، والأخذ بمبدأ التيسير، والبعد عن كل مناحي التصلب والتعقيد، ولذا فهي مأمورة بأن لا تكلف نفسها، ما ليس في وسعها الفطري، وطاقتها البشرية السهلة المعهودة: فعن عبدالله بن عمر، عن النبي ﷺ أنه ذكر رمضان فقال: «**لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غُمّ عليكم فاقدروا له**».

وفي رواية: «**فاقدروا له ثلاثين**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غم عليكم فصوموا ثلاثين يوماً**»(٢) هكــذا، وبمنتهــى البساطــة والسهولــة

---

(١) مسلم ١٠٨٠ في الصيام، صوم رمضان لرؤية الهلال، أبو داود ٢٠٣٤/ ٢٣٢٥ في الصوم، الشهر يكون تسعاً وعشرين.

(٢) البخاري ١٩٠٧ في الصوم، إذا رأيتم الهلال فصوموا، مسلم ١٠٨١ في الصوم، وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال.

والوضوح: اعتمدوا في تحديد صومكم وفطركم، وفي تعيين أيام حجكم، ومعرفة شهوركم على الرؤية البصرية للهلال فحسب، وكفاكم هذا السبيل السهل، الميسر لغالب عامتكم. ولم يطلب ﷺ من أمته - وهي أمة الفطرة - أن تتكلف تعلُّم علم حساب النجوم، والعمق في مسائله، والغوص في دقائقه، بغية الوصول إلى معرفة منازل الهلال، وتحديد مطالع الشهور ونهاياتها، وماكان هذا إلا تمشياً مع قاعدة (المشقة تجلب التيسير) التي هي من ألزم قواعد هذا الدين الحنيف وشريعته السمحة الغراء.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[١]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وبشروا ويسروا»[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً)[٤].

وقد تناول العلماء (حديث الأمة الأمية)، وأسهبوا في بيان تعليق حكم الصوم - بناءً على منطوقه - برؤية الهلال، دون تكلف الرجوع في ذلك إلى أهل التسيير والحساب.

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥ .

(٢) سورة الحج، الآية ٧٨ .

(٣) النسائي ٤٦٦١ في الإيمان، الدين يسر .

(٤) البخاري ٣٥٦٠ في المناقب، صفة النبي ﷺ، مسلم ٢٣٢٧ في الفضائل، مباعدته ﷺ للآثام، أبو داود ٤٠٠٢/ ٤٧٨٥ في الأدب، في التجاوز في الأمر.

قال الحافظ ابن حجر: (وقيل للعرب أميون؛ لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة، والمراد بالحساب - هنا - حساب النجوم وتسييرها، ولم يكونوا يعرفون من ذلك أيضاً إلا النزر اليسير).

ثم انتهى من ذلك إلى القول: بأن المعوَّل في الصيام إنما يكون على الرؤية لا الحساب، ولو وجد في المسلمين من يتقن علم حساب النجوم.

قال: فعلق الحكم بالصوم وغيره بالرؤية، لرفع الحرج عنهم في معاناة حساب التسيير، واستمر الحكم في الصوم، ولو حدث بعدهم من يعرف ذلك، بل ظاهر السياق يشعر بنفي تعليق الحكم بالحساب أصلاً ويوضحه قوله في الحديث: «**فإن غُم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين**»، ولم يقل: (فسلوا أهل الحساب).

ثم قال: (وقد ذهب قوم إلى الرجوع إلى أهل التسيير في ذلك، وهم الروافض، ونقل عن بعض الفقهاء موافقتهم، قال الباجي: وإجماع السلف الصالح حجة عليهم، وقال ابن بزيزة: وهو مذهب باطل فقد نهت الشريعة عن الخوض في علم النجوم؛ لأنها حدس وتخمين، ليس فيها قطع ولا ظن غالب، مع أنه لو ارتبط الأمر بها لضاق، إذ لا يعرفها إلا القليل)(١).

ثم نقل عن ابن بطال قوله: (في الحديث رفع لمراعاة النجوم بقوانين التعديل، وإنما المعول رؤية الهلال، وقد نهينا عن التكلف ولاشك أن مراعاة ما غمض حتى لا يدرك إلا بالظنون غاية

(١) فتح الباري لابن حجر ٤/١٥١ .

التكلف)[١].

وقال السندي في حاشيته على سنن النسائي: (إذا كان الشهر مختلفاً فالعبرة برؤية الهلال، ولذلك ما كلفنا الله تعالى بحساب أهل النجوم، ولا بالشهور الشمسية الخفية، بل كلفنا بالشهور القمرية الجلية، لكنها مختلفة، فالعبرة حينئذ للرؤية)[٢].

أما شيخ الإسلام ابن تيمية، فكان أسهب في بيان بطلان اعتماد علم الحساب أساساً لتقرير مواعيد العبادات عند المسلمين، مؤكداً على أن التزام رؤية الهلال، هي السنة التي ارتضاها الله لهذه الأمة، في أمور عباداتها.

قال رحمه الله: فإنا نعلم بالاضطرار من دين الإسلام، أن العمل في رؤية هلال الصوم أو الحج أو العدة أو الإيلاء، أو غير ذلك من الأحكام المعلقة بالهلال، بخبر الحاسب أنه يرى أو لا يرى لا يجوز، والنصوص المستفيضة عن النبي ﷺ بذلك كثيرة، وقد أجمع المسلمون عليه، ولا يعرف فيه خلاف قديم أصلا، ولا خلاف حديث، إلا أن بعض المتأخرين من المتفقهة الحادثين بعد المائة الثالثة، زعم أنه إذا غم الهلال، جاز للحاسب أن يعمل في حق نفسه بالحساب، فإن كان الحساب دل على الرؤية صام وإلا فلا، وهذا القول ـ وإن كان مقيداً بالإغمام، ومختصاً بالحاسب ـ فهو شاذ، مسبوق بالإجماع على خلافه، فأما اتباع ذلك في الصحو،

---

(١) فتح الباري ٤/ ١٥٢ .

(٢) سنن النسائي ٤/ ١٣٩ـ١٤٠، الطبعة الأولى ١٩٣٠م، دار الفكر، بيروت، بشرح السيوطي وحاشية السندي.

أو تعليق عموم الحكم العام به، فما قاله مسلم.

وقد يقارب هذا قول من يقول من الإسماعيلية بالعدد دون الهلال، وبعضهم يروي عن جعفر الصادق جدولاً يعمل عليه، وهو الذي افتراه عليه عبدالله بن معاوية، وهذه الأقوال خارجة عن دين الإسلام، وقد برأ الله منها جعفراً وغيره.

قال تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴾[1]، فأخبر أنها مواقيت للناس، وهذا عام في جميع أمورهم، وخص الحج بالذكر تمييزاً له. فجعل الله الأهلة مواقيت للناس في الأحكام، فما ثبت من المؤقتات بشرع أو شرط فالهلال ميقات له، وهذا يدخل فيه الصيام والحج، ومدة الإيلاء والعدة وصوم الكفارة.

وذلك أن الهلال أمر مشهود مرئي بالأبصار، ومن أصح المعلومات ما شوهد بالأبصار، ولهذا سموه هلالاً، لأن هذه المادة تدل على الظهور والبيان، إما سمعاً وإما بصراً، كما يقال: أهلَّ بالعمرة، وأهلَّ بالذبيحة لغير الله إذا رفع صوته، ويقال لوقع المطر: الهلل، ويقال: استهل الجنين، إذا خرج صارخاً، ويقال: تهلل وجهه إذا استنار وأضاء.

فالمقصود أن المواقيت حددت بأمر ظاهر بيِّن يشترك فيه الناس، ولا يشرك الهلال في ذلك شيء، فإن اجتماع الشمس والقمر، الذي هو تحاذيهما الكائن قبل الهلال، أمر خفي لا يعرف إلا بحساب ينفرد به بعض الناس، مع تعب وتضييع زمان كثير،

---

(١) سورة البقرة، من الآية ١٨٩ .

واشتغال عما يعني الناس وما لابد له منه، وربما وقع فيه الغلط والاختلاف.

وكذلك كون الشمس حاذت البرج الفلاني أو الفلاني، هذا أمر لا يدرك بالأبصار، وإنما يدرك بالحساب الخفي الخاص المشكل، الذي قد يغلط فيه، وإنما يعلم ذلك بالإحساس تقريباً، فظهر أنه ليس للمواقيت حد ظاهر عام المعرفة إلا الهلال).

وبعد أن تناول عادات الأمم في معرفة شهورها وسنيها، قال: (فالذي جاءت به شريعتنا أكمل الأمور، لأنه وقت الشهر بأمر طبيعي ظاهر عام يدرك بالأبصار، فلا يضل أحد عن دينه، ولا يشغله مراعاته عن شيء من مصالحه، ولا يدخل بسببه فيما لا يعنيه، ولا يكون طريقاً إلى التلبيس في دين الله، كما يفعل علماء أهل الملل بمللهم)[١].

وقد رد الشيخ عبدالعزيز بن باز على من قال بقول الفلكيين، بأن كسوف الشمس لا يكون إلا في آخر الشهر، في ليالي استسرار القمر، وأنه يمكن الاستدلال بذلك على تحديد بداية الشهر، من غير الاعتماد على رؤية الهلال، فقال:

(أما قول الفلكيين إن كسوف الشمس لا يكون إلا في آخر الشهر، في ليالي استسرار القمر، فليس عليه دليل يعتمد عليه، ويسوغ من أجله أن تخالف الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ، وقد صرح جمع من أهل العلم، بأن كسوف الشمس يمكن وقوعه

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٥/ ١٣٢ ـ ١٣٩ بتصرف، جمع عبدالرحمن بن محمد القاسم، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ، الدار العربية، بيروت.

في غير آخر الشهر، وهكذا خسوف القمر يمكن وقوعه في غير ليالي الإبدار، والله سبحانه على كل شيء قدير، وكون العادة الغالبة وقوع كسوف الشمس في آخر الشهر، لا يمنع وقوعه في غيره).

وأما بصدد وجوب اعتماد الرؤية في إثبات الأهلة والشهور، فقال: (وقد صحت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بوجوب اعتماد الرؤية في إثبات الأهلة أو إكمال العدة وهي أحاديث مشهورة مستفيضة عن رسول الله ﷺ في الصحيحين وغيرهما، وحكمه لا يختص بزمانه فقط، بل يعم زمانه ومايأتي بعده إلى يوم القيامة، لأنه رسول الله إلى الجميع، والله سبحانه أرسله إلى الناس كافة، وأمره أن يبلغهم ماشرعه لهم في إثبات هلال رمضان وغيره، وهو العالم بغيب السماوات والأرض، والعالم بما سيحدث بعد زمانه من المراصد وغيرها، ويعلم سبحانه مايقع من الكسوفات، ولم يثبت عن رسوله محمد ﷺ أنه قيد العمل بالرؤية بموافقة مرصد أو عدم وجود كسوف، وقد قال النبي ﷺ: «**إنا أمة أمية: لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا، وخنس إبهامه في الثالثة، والشهر هكذا وهكذا وهكذا، وأشار بأصابعه العشر**»، وصح عنه أنه قال: «**لا تقدموا الشهر حتى تروا الهلال أو تكملوا العدة، ثم صوموا حتى تروا الهلال أو تكملوا العدة**»، ولم يأمر بالرجوع إلى الحساب، ولم يأذن في إثبات الشهور بذلك.

ولست أقصد من هذا منع الاستعانة بالمراصد والنظارات على رؤية الهلال، ولكني أقصد منع الاعتماد عليها أو جعلها معياراً للرؤية، لا تثبت إلا إذا شهدت المراصد لها بالصحة، أو بأن

الهلال قد ولد، فهذا كله باطل، ولا يخفى على كل من له معرفة بأحوال الحاسبين من أهل الفلك، مايقع بينهم من اختلاف في كثير من الأحيان، في إثبات ولادة الهلال أو عدمها، وفي إمكان رؤيته أو عدمها.

ولو فرضنا إجماعهم في وقت من الأوقات على ولادته أو عدم ولادته، لم يكن إجماعهم حجة، لأنهم ليسوا معصومين، بل يجوز عليهم الخطأ جميعاً، وإنما الإجماع المعصوم الذي يحتج به، هو إجماع سلف الأمة في المسائل الشرعية)[1].

فالمراد بـ (الحساب) الذي أشارت إليه عبارة (لا نحسب) في الحديث، هو علم حساب النجوم، أو مايسمى بـ(علم التسيير)، وقد دل الحديث على أن هذه الأمة غير مكلفة بالأخذ بهذا العلم، وصولاً إلى معرفة منازل القمر، وتحديد بدايات الشهور ونهاياتها، لما في ذلك من الكلفة والعنت، ولكونه علماً يقوم على الحدس والتخمين، واحتمال الوقوع في الخطأ فيه كبير، وإنما المعول في ذلك كله على رؤية الهلال بالبصر المجرد، لما في ذلك من التيسير على عامة الأمة، ولكونه أمراً ظاهراً عاماً بيناً، يشترك فيه غالب الناس، والأخذ به أبعد عن الخطأ، وعن التلبيس في دين الله تعالى.

أما فيما يتعلق بمفهوم (الكتابة) - والمشار إليه في الحديث

---

(١) متى تثبت رؤية الهلال ثبوتاً شرعياً وجب العمل بها ولم يجز أن تعارض بكسوف ولا غيره، مقال لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، نشرته مجلة البحوث الإسلامية عدد ٢٤ ص ٣٧٦ - ٣٧٩.

بعبارة (لا نكتب) ـ فإن أكثر العلماء قد وقفوا عند ظاهر اللفظ، لم يتجاوزوه، وحملوه على عدم إجادة الكتابة، باعتبار أن هذه المهارة كانت في هذه الأمة عزيزة نادرة، لا يتقنها إلا قلائل الأفراد.

غير أن شيخ الإسلام ابن تيمية، نظر إلى المسألة نظرة ثاقبة ذكية متعمقة، فذهب إلى أن أمة العرب كانت أمة أمية قبل القرآن، لأنه لم يكن لها كتاب تقرؤه، وظلت بعد نزوله أمية، باعتبار عدم احتياجها لحفظ دينها إلى كتابته، بل إن قرآنها محفوظ في صدور أبنائها، إضافة إلى تكفل الله سبحانه بحفظه ـ بنص الكتاب ـ إلى يوم الدين.

قال رحمه الله: (ويقال: (الأمي) لمن لا يقرأ ولا يكتب كتاباً، ثم يقال لمن ليس لهم كتاب منزل من الله يقرؤنه، وإن كان قد يكتب ويقرأ ما لم ينزل، وبهذا المعنى كان العرب كلهم أميين، فإنه لم يكن عندهم كتاب منزل من الله، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾(1)، وقد كان في العرب كثير ممن يكتب ويقرأ المكتوب، وكلهم أميون.

فلما نزل القرآن عليهم، لم يبقوا أميين باعتبار أنهم لا يقرؤون كتاباً من حفظهم، بل هم يقرؤون القرآن من حفظهم، لكن بقوا أميين باعتبار أنهم لا يحتاجون إلى كتابة دينهم، بل قرآنهم محفوظ في قلوبهم، كما في الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي مرفوعاً، وفيه: «**إني مبتليك ومبتل بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظاناً**».

---

(1) سورة الجمعة، من الآية ٢ .

فأمتنا ليست مثل أهل الكتاب الذين لا يحفظون كتبهم في قلوبهم، بل لو عدمت المصاحف كلها، كان القرآن محفوظاً في قلوب الأمة، وبهذا الاعتبار فالمسلمون أمة أمية بعد نزول القرآن وحفظه، كما في الصحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إنا أمة أمية: لا نحسب ولا نكتب، الشهر هكذا وهكذا**»، فلم يقل: إنا لا نقرأ كتاباً ولا نحفظ، بل قال: «**لا نكتب ولا نحسب**» فديننا لا يحتاج أن يكتب ويحسب، كما عليه أهل الكتاب، من أنهم يعلمون مواقيت صومهم وفطرهم بكتاب وحساب، ودينهم معلق بالكتب، لو عدمت لم يعرفوا دينهم[(١)].

قلت: وعدم اعتماد هذه الأمة على الكتابة في حفظ كتابها - كحال الأمم السابقة في حفظ كتبها - يرجع إلى تكفل الله عز وجل بحفظ هذا الكتاب، الأمر الذي لم يتكفل به سبحانه لأي كتاب سماوي آخر، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[(٢)].

فالكتب السماوية السابقة إنما نزلت لأمد معين ووقت محدد، فإذا انقضى ذلك الأمد أو الوقت، الذي أنزل من أجله كل كتاب من تلكم الكتب، تعرض ذلك الكتاب لما تعرض له سابقوه من الكتب الأخرى، من عوامل الضياع، ومظاهر التلاشي والنسيان، وأصابه - ما أصابها - من النقص والتزيد والحذف والتغيير والتحريف، بما لا يجعله صالحاً بعد تلك الفترة التي أنزل لها.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧/ ٤٣٥ ومابعدها.

(٢) سورة الحجر، الآية ٩ .

أما كتاب هذه الأمة، فهو خاتم الكتب جميعاً، وهو معجزة الله الخالدة بين يدي خلقه إلى قيام الساعة، ولذا تكفل سبحانه وتعالى بحفظه وصونه، كتب أم لم يكتب، حرص على جمعه وتدوينه أم لم يحرص، وهذا ما يوضحه الخطاب الإلـٰهي التالي، الموجه إلى محمد ﷺ، حين أخذ يسارع في حفظ القرآن ويلهج بترديده، مخافة نسيانه له، وضياعه منه، قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾(1).

فهذا الكتاب المبين محفوظ بحفظ الله له، وبتسخيره طائفة من عباده المؤمنين يحفظونه في صدورهم، ويتعاهدونه بالتلاوة والترديد، آناء الليل وأطراف النهار، وما كتابته ـ من قبل كتبة الوحي وفي المصاحف ـ إلا تزيداً في تثبيت هذا الحفظ، ومبالغة في تأكيد ذلك الصون لا أكثر.

لقد رفع ـ بقوله ﷺ: «**إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب**» ـ عن هذه الأمة إصران من الآصار التي تغل حياة غيرها من الأمم:

١ ـ إصر تكلف التزام الكتابة، لحفظ الكتاب والسنة، مخافة ضياعهما، ذلك لئلا تصير أصول ديننا ـ من كتاب وسنة ـ معلقة بالكتب، لو عدمت هذه الكتب ضاع أكثر تلك الأصول.

٢ ـ إصر تقحم وعثاء علم حساب النجوم، لمعرفة مواقيت بعض العبادات والأحكام، من صوم، وفطر، وحج، وعدة، وإيلاء، وكفارات، وذلك كي لا تصبح أحكام ديننا معلقة بعلم حساب النجوم، الذي تشق معرفته على غالب جماهير الأمة، بل

---

(1) سورة القيامة، الآيات ١٦ ـ ١٩.

أمره محصور في أفراد قلائل معدودين.

وهذا كله يندرج تحت باب (الرحمة بهذه الأمة)، باعتبارها أمة الفطرة، وباعتبار رسالتها الرسالة الخاتمة، التي تصلح لكل زمان ومكان وجيل.

الإسلام وتعلم الكتابة:

وتمشياً مع مفهوم أن أمية هذه الأمة، لا تعني التقليل من دور الكتابة في حياتها بحال من الأحوال، وإنما للأمية دلالاتها المشرقة، ومعانيها الطيبة الحميدة، فقد حض الإسلام على تعلم الكتابة، وأولى هذا الجانب من حياة المسلمين جل اهتمامه وعظيم عنايته.

فلتعلم الكتابة ـ في الإسلام ـ شأن وأي شأن؟

ومن هنا، فقد ألح الإسلام على ضرورة تعلمها، باعتبارها إحدى وسائل نشر الدعوة إلى دين الله تعالى، ومدرجاً مهما من مدارج تقدم البشرية ونمو حضارتها.

وعليه، فقد كان أول ما أنزل على محمد ﷺ من الوحي الإلـهي قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(١).

فالخطوة الأولى من خطوات الدعوة إلى الله اقرأ.

نعم، أن يقرأ باسم الله الخالق الكريم، الرب المعلم بـ (القلم)، الذي علم الإنسان ـ عن طريق القلم وعن طريق غيره ـ

---

(١) سورة العلق، الآيات ١ ـ ٥ .

ماكان يجهله، ولا يتصور له ـ قبلاً ـ أنه سيتعلمه.

فالقلم كان ولايزال أوسع أدوات التعليم أثراً في حياة الإنسان، وهذا ما يفسر هذه الإشارة إليه ـ بل الإلحاح على ذكره ـ في أول لحظة من لحظات الوحي، وفي أول سورة من سور القرآن العظيم.

وفي القرآن الكريم سورة سميت بـ (القلم). تأكيداً على دوره البالغ، وإصراراً على بيان قيمته ووزنه، في كل مجالات الدين والحياة، وفيها كانت البداءة القسم بالقلم وما يسطر القلم.

قال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

يقول سيد قطب رحمه الله: (يقسم الله سبحانه بنون، وبالقلم، وبالكتابة، والعلاقة واضحة بين الحرف (ن) بوصفه أحد الحروف الأبجدية، وبين القلم والكتابة.

فأما القسم بما هو تعظيم لقيمتها، وتوجيه إليها، في وسط أمة لم تكن تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق، وكانت الكتابة فيها متخلفة نادرة، في الوقت الذي كان دورها المقدر لها في علم الله، يتطلب نمو هذه المقدرة فيها، وانتشارها بينها، لتقوم بنقل هذه العقيدة ـ ومايقوم عليها من مناهج الحياة ـ إلى أرجاء الأرض، ثم لتنهض بقيادة البشرية قيادة رشيدة.

وما من شك أن الكتابة عنصر أساسي في النهوض بهذه المهمة

(١) سورة القلم، الآيات ١ ـ ٤ .

الكبرى[1].

وفي السنة النبوية الشريفة، نجد مثل هذا الحض على تعلم الكتابة، والتوجيه إلى ضرورتها:

(أ) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: رب، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**»[2].

(ب) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**قيدوا العلم بالكتاب**»[3].

وفي رواية للحاكم عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «**قيدوا العلم**» قلت: وما تقييده؟ قال: «كتابته»[4].

(جـ) وعن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة القرشي: أن رجلاً من الأنصار خرجت به نملة، فدُلَّ أن الشفاء بنت عبدالله ترقي من النملة، فجاءها، فسألها أن ترقيه، فقالت: والله ما رقيت منذ أسلمت، فذهب الأنصاري إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بالذي قالت الشّفاء، فدعا رسول الله ﷺ الشَّفاء، فقال: اعرضي علي، فعرضتها عليه، فقال: «**ارقيه وعلميها حفصة كما علمتِها**

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٥٤ ـ ٣٦٥٥ .

(٢) أبو داود ٣٩٣٣/ ٤٧٠٠ في السنة، القدر، واللفظ له، الترمذي ١٧٤٩/ ٢٢٥٨ في القدر، باب ١٦ أحمد ٥/ ٣١٧، البيهقي في الأسماء والصفات ص ٢٧١، السلسلة الصحيحة، الألباني رقم ١٣٣ .

(٣) رواه الطبراني في الكبير (رقم/ ٧٠٠)، وأبو نعيم في أخبار أصفهان: (٢/ ٢٢٩) والحاكم في المستدرك (١/ ١٠٦)، وذكره الألباني في الصحيحة: (٢٠٢٦)، وفي صحيح الجامع: (٤٣١٠).

(٤) المرجع السابق .

الكتاب». وفي رواية: «**كما علمتِها الكتابة**»[1].

(د) وعن عائشة بنت طلحة، قالت: (قلت لعائشة ـ وأنا في حجرها ـ وكان الناس يأتونها من كل مصر، فكان الشيوخ ينتابونني لمكاني منها، وكان الشباب يتأخونني فيهدون إلي، ويكتبون إليَّ من الأمصار، فأقول لعائشة: ياخالة، هذا كتاب فلان وهديته. فتقول لي عائشة: أي بنية، فأجيبيه، وأثيبيه، فإن لم يكن عندك ثواب أعطيتك. قالت: فتعطيني)[2].

قلت: ففي الحديث الأول أن القلم هو أول مخلوق، فليس قبله قطعاً أي مخلوق، وفي هذا تشريف له ولدوره جد عظيم.

وفي الحديث الثاني أمر بتقييد العلم عن طريق كتابته وتسجيله، كي يحفظ، فلا يضيع أو ينسى أو تندثر أعلامه، ولا يكون ذلك إلا بإتقان الكتابة، وتوظيفها في جميع شؤون العلم ومجالاته.

---

(١) أخرجه الحاكم ٤/٥٦، وأحمد ٦/٣٧٢، وأبو داود ٣٨٨٧ في الطب، باب الرقى، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٢/٣٨٨، وذكره الألباني في الصحيحة ١٧٨.

والنملة: قروحٌ تخرج في الجَنْب.

أما الحديث القائل: «لا تعلموهن الكتابة، ولا تسكنوهن الغرف، وعلموهن سورة النور»، فقد رده الألباني في الصحيحة حديث ١٧٨، من وجهين: الأول: أن هذا الحديث موضوع، كما قال الذهبي، وطرقه كلها واهية جداً. والآخر: لو كان المراد نهي من يخشى عليها الفساد من التعليم، لم يكن هناك فائدة من تخصيص النساء بالنهي، لأن الخشية لا تختص بهن. ثم قال: (والحق أن الكتابة والقراءة نعمة من نعم الله على البشر، وهي كسائر النعم التي امتن بها عليهم، وأراد منهم استعمالها في طاعته فإن وجد فيهم من يستعملها في غير مرضاته، فليس ذلك بالذي يخرجها من كونها نعمة كنعمة السمع والبصر وغيرها).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١١١٨، باب الكتابة إلى النساء وجوابهن، وذكره الألباني في الصحيحة ١/١٣٥ وصحح إسناده.

في الحديثين الأخيرين إشارة واضحة إلى مشروعية تعليم النساء الكتابة، فكيف - إذن - بمن هم فحول الرجال وشم الأنوف؟

ويبقى - هنا - سؤال مفاده:

إننا نلحظ إصراراً بالغاً من الوحي - بشقيه: الإلـٰهي، والنبوي - على إعلاء شأن القلم، والتوكيد على دوره البارز في مسيرة الحياة، والأمر بضرورة تقييد العلم عن طريق كتابته لتحفظ رسومه، والحض على تعلم فن الكتابة من قبل كافة المسلمين، رجالهم ونسائهم.

فهل كان هذا كله، من أجل محو صبغة (الأمية) عن هذه الأمة؟

أبداً، إن هذه الأمة كانت (أمية) قبل انتشار الكتابة فيها، وظلت أمية بعد ذيوع هذا الفن بين أبنائها، وستظل أمية إلى قيام الساعة.

وانتشار مهارة الكتابة لن يقدم - في هذه المسألة - شيئاً ولن يؤخر، لأن (الأمية) هي الصبغة التي اختارها الله صفة لازمة لهذه الأمة، لا تزول عنها أبد الدهر ولا تحول، ففيها من أسرار الدلالات، ما يرفع من مقام هذه الأمة، ويذهب بها مقاماً علياً:

قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾(1).

هل كان من فداء أسرى بدر تعليمهم صبيان المسلمين الكتابة؟

---

(1) سورة البقرة، الآية ١٣٨ .

وبمناسبة الحديث عن الكتابة، فإن هناك حادثة مزعومة، غالباً مايستشهد بها الكتاب والدعاة والخطباء والوعاظ، في كل مناسبة يُستَجرُّون فيها للحديث عما يسمى اليوم بـ (مكافحة الأمية)، استدلالاً منهم على مدى حرص الإسلام على الخلاص من هذا (الوباء)، ونشر تعليم الكتابة بين أبنائه، ألا وهي قصة أسرى بدر من المشركين، إذ يزعمون أن النبي ﷺ جعل فداء بعض أسارى المشركين يوم بدر، أن بعلموا أولاد المسلمين الكتابة.

ففي مسند الإمام أحمد: عن علي بن عاصم قال: قال دواد ابن أبي هند: حدثنا عكرمة، عن ابن عباس قال: (كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم، أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، قال: فجاء يوماً غلام يبكي إلى أبيه، فقال: ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي، قال: الخبيث يطلب بذحل بدر، والله لا تأتيه أبداً)[1].

وهذه الرواية ليست ثابتة من وجهين:

الأول: من حيث سندها، ففيه: علي بن عاصم بن صهيب الواسطي شيخ الإمام أحمد وداود بن أبي هند.

أما علي بن عاصم، فقد قال فيه أبو حاتم: (لين الحديث، يُكتَبُ حديثُه ولا يُحْتَجُّ به)[2].

---

(١) رواه أحمد ٢٤٧/١ ورقم ٢٢١٦ في طبعة شاكر، وذكره المجد ابن تيمية في منتقى الأخبار رقم ٤٣٨٧ عن أحمد، وهو في نيل الأوطار للشوكاني ٣٠٥/٧، طبعة دار القلم ببيروت. والذحل: الثأر.

(٢) الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم ١٩٩/٦، الطبعة الأولى، حيدر آباد ـ الهند.
و(يكتب حديثه): أي في الشواهد والمتابعات، لا أنه حجة بنفسه.

كما ونقل عن يزيد بن زريع قوله: (أفادني علي بن عاصم أحاديث عن خالد الحذَّاء، فأتيت خالداً الحذاء فأنكرها، وماعرف منها واحداً، وأفادني عن هشام بن حسان، فأتيت هشاماً، فسألته عنه، فأنكره وما عرف).

وقال يحيى بن معين فيه: (علي بن عاصم ليس بثقة)[١].

وقال الإمام أحمد: (خذوا من حديثه ماصح، ودعوا ما غلط أو أخطأ فيه).

وقال ابنه عبدالله: (كان أبي يحتج بهذا، وكان يقول: كان يغلط ويخطيء، وكان فيه لجاج، ولم يكن متهماً بالكذب)[٢].

وقال عنه الحافظ في التقريب: (علي بن عاصم بن صهيب الواسطي صدوق، يخطيء، ويصر، ورُمي بالتشيع)[٣].

كما وضعفه الألباني في (السلسلة الضعيفة) وقال فيه: (ضعيف الحديث)[٤].

أما (داود بن أبي هند)، فقد قال عنه الحافظ في التقريب: (داود بن أبي هند ثقة متقن، كان يهم بآخره).

الثاني: أن الثابت عن النبي ﷺ في طريقة معالجته لمسألة الأسرى، أنه لم يكن يتجاوز مجموعة هذه المعالجات:

١ ـ القتل.

---

(١) انظر قولي يزيد بن زريع وابن معين في: الجرح والتعديل: ٦/١٩٨.

(٢) العلل في معرفة الرجال، أحمد بن حنبل: ١/٥٢.

(٣) تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ص ٢٤٧.

(٤) انظر السلسلة الضعيفة ١/٣٢٨، طبعة المكتب الإسلامي ١٣٩٨هـ، ٢/٣٥٨، طبعته أيضاً سنة ١٣٩٩هـ.

٢ ـ المفاداة بمال .

٣ ـ المفاداة بمن في أيدي المشركين من أسرى المسلمين .

٤ ـ الاسترقاق .

٥ ـ العفو .

ولم يرد في رواية صحيحة ثابتة، أنه جعل تعليم أسرى المشركين لأبناء المسلمين الكتابة فداء لهم من أسرهم، وهذه هي كتب السنة والسيرة والفقه، تتحدث عن فداء الأسرى، ولا تذكر شيئاً غير الذي قلناه. ومن ذلك كله، يتبين سقوط الاحتجاج بهذه الرواية، في إثبات هذه المسألة.

وللأمية مدلولاتها :

لو استعرضنا أقوال أهل العلم بالتفسير، وأهل الحديث، وأرباب اللغة العربية، لوجدنا أن للأمية مدلولاتها المتعددة، منها مايدل على صفة محمودة ممدوحة، ومنها مايدل على صفة قبيحة مذمومة.

١ ـ فالأمية: مصدر صناعي، والأمي: الذي لا يحسن الكتابة، ولا يقرأ من الكتاب.

ففي اللسان: (الأمي: الذي لا يكتب، قال أبو إسحق: معنى الأمي: المنسوب إلى ماعليه جبلته أمه، أي لا يكتب، فهو في أنه لا يكتب أمي، لأن الكتابة مكتسبة، فكأنه نسب إلى مايولد عليه، أي على ماولدته أمه عليه، وقيل للعرب الأميون لأن الكتابة فيهم عزيزة أو عديمة، وقال الزجاج: الأمي الذي على خِلْقة الأُمّة

لم يتعلم الكتاب فهو على جبلَّته)[١].

وفي المعجم الوسيط: (الأمي: من لا يقرأ ولا يكتب، نسبة إلى الأم أو الأمَّة)[٢].

وبذا فسر بعضهم قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[٣] الآية.

قالوا: فهؤلاء لا علم لهم بالتوراة، لما هم عليه، من كونهم لا يكتبون ولايقرؤون المكتوب، فهي مجرد أماني وتخرصات لديهم يتمنونها، ويعللون بها أنفسهم ليس غير.

قال الطبري: يعني بالأميين: الذين لا يكتبون ولا يقرؤون، وأرى أنه قيل للأمي أمي، نسبة له بأنه لا يكتب إلى أمه، لأن الكتاب كان في الرجال دون النساء، فنسب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه، في جهله بالكتاب دون أبيه)[٤].

وقال ابن كثير: (والأميون ـ هنا ـ جمع أمي: وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة)[٥].

وقال الشوكاني: (والأمي: منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادتها من أمهاتها، لم تتعلم الكتابة، ولا تحسن القراءة

---

(١) لسان العرب، ابن منظور المصري: ١٣٨/١، طبعة دار المعارف مصر ٦ مجلدات، حسب أوائل الكلمات.

(٢) المعجم الوسيط ٢٧/١، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت.

(٣) سورة البقرة، الآية ٧٨.

(٤) تفسير الطبري ٢٩٦/١.

(٥) تفسير ابن كثير ١٠٤/١.

للمكتوب)[1].

وقال أبو السعود: (الأمي: هو الذي لا يقدر على الكتابة والقراءة، واختلف في نسبته: فقيل إلى الأم، بمعنى أنه شبيه بها في الجهل بالكتابة والقراءة، لأنهما ليستا من شؤون النساء، بل من خلال الرجال، بمعنى أنه على الحالة التي ولدته أمه في الخلو عن العلم والكتابة.

وقيل: إلى الأمة، بمعنى أنه باق على سذاجتها، خال من معرفة الأشياء)[2].

قال الإمام القرطبي: (الأمي: من لا يكتب ولا يقرأ)[3].

وبهذا فسر بعضهم ـ أيضا ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾[4]. فقالوا: هو الذي لا يحسن الكتابة، ولا يقرأ من كتاب.

قال القرطبي: (الأمي منسوب إلى الأمة الأمية، التي هي على أصل ولادتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها، قال ابن عباس: كان نبيكم أمياً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب)[5].

وقال الراغب الأصفهاني: (قيل سمي بذلك لأنه لم يكن يكتب ولا يقرأ من كتاب، وذلك فضيلة له، لاستغنائه بحفظه، واعتماده على ضمان الله له بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾)[6].

---

(١) فتح القدير للشوكاني ١/ ١٠٤ .

(٢) تفسير أبي السعود ١/ ١٩٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٥ .

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٥٧ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٩٨ .

(٦) معجم مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٩ ، تحقيق نديم مرعشلي، دار الفكر، =

ويلاحظ أنهم ـ جميعاً ـ جعلوا نسبة (الأمي) التي بمعنى عدم معرفة الكتابة وقراءة المكتوب إلى أحد شيئين:

(أ) إما إلى (الأم)، لكونها لا تعرف الكتابة ولا القراءة من كتاب في غالب أمرها، لأن الكتابة كانت عزيزة أكثر ما تكون في النساء، أو أنه لايزال ـ في عدم معرفته الكتابة ـ على مثل ما ولدته عليه أمه، من جهله بها، وعدم إتقانه لها.

(ب) وإما إلى (الأمة) التي يغلب عليها الجهل بالكتابة وقراءة المكتوب، كما نسبوا إلى (عامّة) فقالوا: (عامّيّ).

٢ ـ والأميون: العرب، وإنما سموا (أميين) لأحد سببين:

(أ) نسبة إلى (أم القرى)، التي هي مكة المكرمة، وقد كانت حاضرة العرب على مدار تاريخهم، ذكر ذلك الحافظ ابن حجر، والشوكاني، وأبو السعود، وصاحب عون المعبود، والراغب الأصفهاني. قال صاحب عون المعبود: (أي: منسوبون إلى أم القرى، وهي مكة، أي: إنا أمة مكية)[1].

(ب) لأن عامتهم كانوا لا يحسنون الكتابة ولا قراءة المكتوب، إذ كانت فيهم الكتابة عزيزة، بل تكاد أن تكون معدومة، فسموا بـ (الأميين) لذلك.

والأميون: الذين ليس لهم كتاب منزل يقرؤونه، ولو كانوا

=بيروت.

(١) انظر: فتح الباري ٤/ ١٥١، فتح القدير ٢/ ٢٥٢، تفسير أبي السعود ٢/ ٤١٤، عون المعبود شرح أبي داود، لأبي الطيب شمس الحق آبادي ٦/ ٤٣٣، الطبعة الثالثة عام ١٣٩٩هـ دار الفكر، بيروت، معجم مفردات القرآن: ص ١٩.

يكتبون ويقرؤون ما لم يُنزَّل، ولذا سُمّي العرب أميين، باعتبار أنهم لم يكن لديهم كتاب منزل يقرؤونه:

قال الفراء: (الأميون: هم العرب، الذين لم يكن لهم كتاب)[1].

وبهذا المعنى فسر بعضهم قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ﴾[2].

وقال الطبري: (الأميون ـ هنا ـ: الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب)[3].

وقال الشوكاني: (والمراد بالأميين ـ هنا ـ مشركوا العرب)[4].

وعلى هذا المعنى، حمل الكثيرون لفظة (الأميين) في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[5].

فقالوا: المقصود بـ (الأميين): العرب الذين ليس لهم كتاب سماوي، فبعث الله إليهم محمداً ﷺ، بكتاب يقرؤه عليهم، ويعلمهم أحكامه.

نقل الطبري عن قتادة قوله: (كان هذا الحي من العرب أمة أمية، ليس فيها كتاب يقرؤونه، فبعث الله نبيه محمداً ﷺ رحمة وهدى يهديهم به).

---

(١) معجم مفردات القرآن ص ١٩ .
(٢) سورة آل عمران، الآية ٢٠ .
(٣) تفسير الطبري ٣/ ١٤٤ .
(٤) فتح القدير ١/ ٣٢٦ .
(٥) سورة الجمعة، الآية ٢ .

وعن ابن زيد قوله: (إنما سميت أمة محمد ﷺ الأميين، لأنه لم ينزل عليهم كتاباً)[١]. قال الشوكاني: (المراد بالأميين: العرب، من كان يحسن الكتابة منهم ومن لا يحسنها، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب)[٢].

وقال أبو السعود: (الأميون: الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب)[٣].

فأصل دلالة الأمي ـ حسب هذا التأويل ـ من ليس له كتاب منزل يقرؤه، ولما كان العرب في غالبهم، ليس لهم كتاب منزل يقرؤونه، لذا سموا (أميين)، مستبعداً ـ من هذه التسمية ـ من كان يهودياً منهم أو نصرانياً، باعتباره كتابياً، لا يشمله هذا الاسم.

٤ ـ الأميون: هم المسلمون، والأمة الأمية: هي الأمة المسلمة. ففي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ﴾[٤].

قال الإمام القرطبي: (قيل: إن اليهود كانوا إذا بايعوا المسلمين يقولون: ليس علينا في الأميين سبيل، أي: حرج في ظلمهم، لمخالفتهم إيانا.

ويقال: إن اليهود كانوا قد استدانوا من الأعراب أموالاً، فلما أسلم أرباب الحقوق، قالت اليهود: ليس علينا شيء، لأنكم تركتم دينكم، فسقط عنا دينكم، وادَّعوا أنه حكم التوراة)[٥].

---

(١) تفسير الطبري ٢٨/ ٦١ .
(٢) فتح القدير ٥/ ٢٢٤ .
(٣) تفسير أبي السعود ١/ ٤٥٦ .
(٤) سورة آل عمران، الآية ٧٥ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٥٤ .

ونقل صاحب (عون المعبود) عن الداودي قوله: (أمة أمية: لم تأخذ عن كتب الأمم قبلها، إنما أخذت عما جاءها به الوحي من الله عز وجل)(١).

والمسلمون لهم كتاب يقرؤونه، وإنما سموا (أميين) لأحد ثلاثة أسباب:

(أ) إما نسبة إلى (أم الكتاب) وهي سورة الفاتحة.

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: (إنما قيل أميون، لنزول الكتاب عليهم، كأنهم نسبوا إلى أم الكتاب)(٢).

(ب) وإما نسبة إلى (النبي الأمي)، فسميت هذه الأمة المسلمة بـ (الأمة الأمية)، نسبة إلى رسولها النبي الأمي محمد ﷺ، وهذا ماذهب إليه الشيخ ناصر الدين الألباني(٣).

(جـ) وإما لأنهم لم يعتمدوا في حفظ دينهم وكتابهم، على كتابتهم له، بل على حفظهم له في صدروهم، ولذا وُصِفوا من دون أتباع الأديان الأخرى، بأنهم الذين تكون أناجيلهم في قلوبهم، وهذا ماذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث قال:

(فلما نزل القرآن عليهم، لم يبقوا أميين باعتبار أنهم لا يقرؤون كتاباً من حفظهم، بل هم يقرؤون القرآن من حفظهم، وأناجيلهم في صدورهم، لكن بقوا أميين باعتبار أنهم لا يحتاجون إلى كتابة دينهم، بل قرآنهم محفوظ في قلوبهم، فأمتنا ليست مثل

---

(١) عون المعبود ٦/ ٤٣٣ .

(٢) نقله الشوكاني في فتح القدير ١/ ١٠٤ .

(٣) قال ذلك في شريط مسجل له، من سلسلة أشرطة اللقاء بينه وبين أبي إسحاق الجويني.

أهل الكتاب الذين لا يحفظون كتبهم في قلوبهم بل لو عدمت المصاحف كلها، كان القرآن محفوظاً في قلوب الأمة.

وبهذا الاعتبار، فالمسلمون أمة أمية بعد نزول القرآن وحفظه، لأن ديننا لا يحتاج أن يكتب ويحسب، كما عليه أهل الكتاب)(١).

٥ ـ والأميون: ما سوى اليهود من الأمم والشعوب، والأمي: هو كل من كان غير يهودي، نسبة إلى (الأمم)، ذلك أن اليهود كانوا يقولون عن غيرهم من الأمم، أنهم (جوييم) أي: أميون، وهذا ماذهب إليه سيد قطب في (الظلال).

قال رحمه الله: (كان اليهود يقولون عن غيرهم من الأمم، أنهم (جوييم) باللغة العبرية، أي: أميون، نسبة إلى الأمم، بوصفهم شعب الله المختار، وغيرهم هم الأمم، والنسبة في العربية إلى المفرد: أمة أميون)(٢).

٦ ـ ويمكن أن يضاف إلى ذلك، أن الأمي: هو المنسوب إلى ماعليه جبلته الأولى، يوم ولدته أمه، فهو لايزال على فطرته السليمة، لم يفسد، ولم ينحرف، ولم يتغير.

وعليه، فإن (الأمة الأمية): هي الأمة التي لاتزال على فطرتها التي فطرها الله عليها، وعلى جبلتها الأولى، لم تنلْها يد الفساد ورياح الانحراف، في مجال الطبائع والأخلاق والسلوك، كما نالت غيرها من الأمم الأخرى.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧/ ٤٣٥ ومابعدها.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٦٤.

وقد كان العرب في جاهليتهم أسلم الأمم، من غوائل الانحراف وعوادي الفساد، في الطبائع والنفس والأخلاق والسلوك، مع وجود ظواهر من هذا القبيل لا تنكر، إلا أنها ـ على كل حال ـ لا تقاس بالمفاسد والانحرافات، التي كانت عليها الأمم الأخرى، والتي وصل بها الحد إلى إباحة نكاح الأم والأخت، وتقديم الزوجة للضيف، بل وعبادة الفرج والنار، واتخاذ الزنا والبغاء سنة محمودة ووضعاً سائداً لا يستنكر، بل إن حال العرب الجاهليين ـ في أخلاقهم وسلوكياتهم وعاداتهم وشعائرهم ـ هو أسلم بكثير من حال كثير من الأمم التي تعيش على ظهر الأرض اليوم، وتدعي أنها بلغت من التقدم والحضارة والرقي، ما تفخر به على باقي أمم الأرض، وتتيه وتختال.

وهذا ما يفسر قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1].

وقوله ﷺ فيما رواه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: «**إن الله عز وجل خلق الخلق، فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا خيارٌ من خيار، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم**»[2].

---

(١) سورة الأنعام، من الآية ١٢٤.

(٢) ذكره ابن تيمية في (اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٥٥)، تحقيق محمد حامد فقي، الطبعة الثانية، مكتبة السنة المحمدية، وذكره محب الدين الخطيب في كتابه (مع الرعيل الأول ص =

وهذه الأمة، لاتزال إلى اليوم أقرب أمم الأرض إلى الفطرة، رغم ما اعتراها من مفاسد وانحراف، فإنها - أيضاً - لا تقاس بماعليه الأمم الأخرى، من عظيم المفاسد ومقيت الشرور والانحرافات.

٧ - كما وتعني الأمية: (الجهالة والغفلة)، والأمي: هو المتصف بقلة المعرفة، العَيُّ الجِلْفُ، القليل الكلام، وهو قول قطرب[١].

ونقل صاحب اللسان - في هذا المعنى - قول الشاعر:

ولا أعودُ بعدَها كريّاً … أمارسُ الكَهْلَةَ والصَّبيّا

والعزب المُنَفَّهَ الأمّيا

وقال: (قيل له أمي، لأنه على ما ولدته عليه أمه، من قلة الحيلة وعجمة اللسان)[٢].

وعلى هذا المعنى، يحمل معنى (الأمي) في اصطلاح الفقهاء، فهو عندهم (خلاف القارىء)، وليس هو خلاف الكاتب، ويعنون به: من لا يحسن قراءة الفاتحة من القرآن الكريم[٣].

=(١٩)، الطبعة السابعة ١٣٩٩هـ، وقال: (قال الحافظ العراقي: وهو حديث حسن، أخرجه الحاكم في المستدرك، ورواه من غير هذا الإسناد أيضاً، وروي نحوه من حديث أبي هريرة، ورواه الطبراني في الأوسط وقال: حديث صحيح).

(١) نقله عنه الراغب الأصفهاني في (معجم مفردات القرآن ص ١٩)، وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧/ ٤٣٤.

(٢) لسان العرب: ١/ ١٣٨، الكَريّ: الأجير، أمارس: أخدم، المُنَفَّه: الجبان الضعيف المائل إلى الدعة وحب الراحة.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧/ ٤٣٦.

خطأ (المعجم الوسيط) في تحديد مفهوم الأمية:

فالأمية ـ إذن ـ مدلولاتها عديدة، وأكثر هذه المدلولات ذات دلالات حسنة ومعاني محمودة. ومن الغريب أن يتجاهل القائمون على إصدار (المعجم الوسيط) ـ وهو المعجم الذي قام على إعداده نخبة مختارة من أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ هذه الدلالات كلها لمفهوم (الأمية)، ويذهبوا إلى حصر معناها، فيماهو نقص وسلب، غافلين عن إيراد كل ماهو مشرق وحميد.

قالوا: (الأمية: مؤنث الأمي، ومصدر صناعي، معناه: الغفلة أو الجهالة).

وعرفوا الأمي، بأنه: (من لا يقرأ ولا يكتب، نسبة إلى الأم أو الأمة، أو العيي الجافي)[1].

ولنا على هذا الكلام بعض الملاحظات:

١ ـ أنهم حصروا مفهوم (الأمية) بواحد فقط من مدلولاتها الكثيرة، التي وردت في كتاب الله عز وجل وفي سنة نبيه ﷺ، وهي معان وعاها المفسرون وأرباب اللغة، وأسهبوا في بيانها، وفصلوا الحديث عنها في أسفارهم.

فلماذا يختار أصحاب هذا المعجم هذا المدلول، ويصرون على ذكره دون غيره، ضاربين بجميع المدلولات الأخرى عرض الحائط؟

إنه انتقاء لا يستدعيه سبب وجيه، إضافة إلى أنه يساهم في تكريس الصورة البشعة لمفهوم (الأمية) في أذهان عامة الناس،

---

(١) المعجم الوسيط ١/ ٢٧ .

ويشارك في إقصائهم عن تلمس وجه الحق والصواب فيه.

٢ ـ أنهم عرفوا (الأمي) بأنه: (من لا يقرأ ولا يكتب)، وفي هذا تعميم يبعث على التشويش. فالقراءة قراءتان: قراءة من الحفظ، وقراءة من الكتاب، وقد كان العرب ـ ومنهم النبي ﷺ، وجم غفير من صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، إضافة إلى من كان فيهم من الشعراء والخطباء والنبهاء ـ لا يحسنون في غالبهم القراءة من كتاب، إلا أنهم كانوا يقرؤون من حفظهم، وقد شملتهم عبارة (الأمية)، لا لكونهم لا يقرؤون إطلاقاً، وإنما لكونهم لا يحسنون القراءة من كتاب، ليس غير.

قال ابن تيمية في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾[1] : (هو أمي باعتبار أنه لا يكتب، ولا يقرأ مافي الكتب، لا باعتبار أنه لا يقرأ من حفظه، بل كان يحفظ القرآن أحسن حفظ).

وعليه وجب تحديد التعريف، بأن الأمي: (من لا يكتب، ولا يقرأ من كتاب)، ليكون أكثر دقة، وأبعد عن التعميم المفضي إلى التشويش.

٣ـ ثم إذا كانت (الأمية) عند أصحاب المعجم الوسيط لا تعني إلا (الغفلة أو الجهالة)، وإذا كان (الأمي) ـ عندهم ـ لا يعني إلا (من لا يقرأ ولا يكتب) أو (العييّ الجافي)، فهل يستطيع واحد منهم أن يتجرَّأ ويحصر تفسير أميته ﷺ أو أمية هذه الأمة المسلمة، بأحد هذه المعاني التي ذكروها؟!

---

(١) سورة الأعراف، من الآية ١٥٨ .

لا أظن أن واحداً منهم يستطيع أن يتجرَّأ على شيء من ذلك أبداً.

لقد قصَّر المعجم في تحديد مفهوم (الأمية)، إذ تناسى جميع مدلولاتها، التي تعج بذكرها كتب التفسير وشروح الحديث واللغة، وألزم نفسه الوقوف عند واحدٍ منها ـ وهو المدلول الشائع الذائع بين الناس اليوم ـ مكرساً له، ومؤكداً عليه، بدل المساهمة في جلاء صورة الحق، وإيضاح أوجه الصواب.

نعم نحن أمَّة أميَّة

وأخيراً . . .

فإن الذي نبتغيه من وراء هذه الدراسة المتواضعة:

١ ـ أن يقف الناس على المعاني الواسعة والكثيرة لمفهوم (الأمية).

٢ ـ وأن يتحرروا مما أراده أعداء هذا الدين وهذه الأمة، من تشويه صورة هذا المفهوم، عن طريق حصره في نطاق مفهوم الجهالة، وفقدان أدنى مقومات التدرج في سلم العلم والمعرفة ـ حسب رأيهم ـ أعني: افتقاد مهارة الكتابة وقراءة المكتوب.

٣ ـ وأن يساعدهم ذلك على فهم المراد بأميته ﷺ، وأمية أمته المسلمة الموحدة، وأن (الأمية) ـ هنا مجال فخر واعتزاز لهذه الأمة، على مدار الزمان.

٤ ـ جلاء الحق وإيضاح رسومه، بحيث لا تختلط ـ لدى الناس ـ المفاهيم، وتتداخل الدلالات، وتستقر على ذلك، فلا يناقشها أحد، ولا يعيد الحق إلى نصابه منصف، فتقع الأمة ـ نتيجة

ذلك - في غبش وتشويش، لا نجني - من ورائه - حصاداً. إلا تبلبلاً في الأفكار، واختلاطاً في التصورات، وغوغائية في الثقافة والفكر.

إننا نحارب (الجهل) بكل صوره وأشكاله، إلا أننا لا نحارب. (الأمية)؛ لأن (الجهل) مسبة وتخلف وانحطاط، وقصور عن مواكبة الجهد الساعي للبشرية، بل تدمير له ونسف وتحطيم.

أما (الأمية) فإن أمرها مختلف، بل إن فيها ماهو جدٌّ مشرق وساطع وحميد. وهل هناك أحمد من الانتساب إلى (النبي الأمي) محمد ﷺ، الذي بعث هدى ورحمة للعالمين؟

أم هل هناك ماهو أفخر من الانتساب إلى (الأمة الأمية) أمة الإسلام، التي كانت خير أمة أخرجت للناس؟

هل هناك مايمنع من الانتساب إلى (العرب). الذي حملوا راية الإسلام، وكانوا - على مدار التاريخ - مادته الأولى، وعنصره الأساس، ودعامته الكبرى؟

أم أن الانتساب إلى (أم الكتاب) أو (أم القرى) فيه ما ينقص ويشين؟

هل في الانتساب إلى الفطرة السليمة والطبيعة المحمودة، التي فطر الله الناس عليها ما يغض ويؤذي ويضير؟

أم أن في اعتماد هذه الأمة المسلمة في حفظ كتابها على قوة حافظتها وانقداح ذاكرتها وتوقد قريحتها. أو اعتمادها في تحديد أحكام صومها وفطرها وحجها وكفاراتها على مجرد الرؤية السهلة الميسرة للكافة، بدل الخوض في غمار علم حساب النجوم الشائك

المستعصي، ما يكون عاراً عليها وسبة وشناراً؟

إن شيئاً من ذلك، لا يمكن أن يدعيه عاقل به ذرة من حكمة، أو تجرد، أو نصَفة، أو بُعد نظر، أو حتى بصيص شعاع من سلامة الفطرة.

وحتى الأمية، التي هي بمعنى (عدم إجادة الكتابة أو القراءة من كتاب) فإنها ليست نقصاً في حد ذاتها، وعلى كل حال فقد كان من ديدن العرب، أنهم كانوا يعدُّون من كمال الرجل اعتماده على حفظ ما يعجبه من شعر وخطب ومثل، وتخزين مايهمه ويخدم مصالحه وييسر سبل حياته واحتياجاته، من علوم الطب والأنساب والنجوم والأنواء على حافظته القوية، وبصيرته اللمَّاحة، وذاكرته النشطة، وذهنه المتوقد. بل إنهم كانوا يعيبون على كل من يجعل المسطور عمدته في كل شيء، لأنه بذلك يعطل بصيرته، ويجمد فطانته، ويبلد ذهنه، ويهدر ما لديه من طاقات ومواهب وملكات، حتى صار قول قائلهم:

ليس بعلم ما حواه القِمَطْرُ إنما العلم ما وعاه الصدر

وقول الآخر:

العلم في الصدور لا في السطور

مثلاً سائراً بينهم، على مختلف عصورهم، وتباين طبقاتهم، لا يعترض عليه فيهم معترض، ولا يجافيه منهم مجاف أو معاند أو مكابر.

فهل يمكن أحداً كائناً من كان أن يصف بالقصور أو النقص، من أغناه توقد ذهنه وبريق حافظته، عن الارتماء في

أحضان الأقلام والقراطيس؟

ما أظن منصفاً يفعل ذلك.

لقد كان توقد ذهن هذه الأمة، وقوة حافظتها، وصفاء ذاكرتها، من المفاخر التي تعتز بها، على مدار تاريخها.

نعم إن (الأمية) - حتى بمعنى عدم إتقان الكتابة وقراءة المكتوب - ليست نقصاً في حد ذاتها، إنها ما كانت في يوم من الأيام كذلك، ولا يمكن لها في المستقبل أن تكون، ويكفينا أن نقرأ التاريخ، ونرصد الواقع، لنتحف بالصورة والشاهد والمثال.

فكم ممن يحمل أعلى الشهادات، وبلغ من سلم الهرم التعليمي القمة، أو كاد، وهو في حقيقة حاله ولب جوهره فارغ المعتقد، خاوي الفكر، هراء التصور، ضحل الثقافة، ركيك المعرفة.

وكم ممن لا يحسن كتابة أو قراءة من كتاب، هو مفخرة شعبه وأمته، بل وتعجز عن إنجاب مثله أمم بأكملها.

وهذا هو تاريخنا الإسلامي الحافل بأفذاذ الرجال وصناديد العظام، الذين سطروا في جبين الدهر، أنصع الأمجاد، وأبهى المحامد والفعال، بما عجزت البشرية عبر تاريخها الطويل أن تأتي ببعض ما أتوا، وهم كانوا ممن لا يحسن كتابة، ولا يقرأ مسطوراً.

لقد ألححنا اليوم بل وبالغنا في الإلحاح، على جعل (الشهادات) مقياساً، لمدى مالدى المرء من علم وثقافة ومعرفة، حتى غدت شوارعنا وأزقتنا وأسواقنا تعج بمئات الآلاف، ممن يحملون أرفع الشهادات على مختلف تخصصاتها ومستوياتها، وليس

في أعماق أكثرهم أدنى استعداد لأن يبحث ذات يوم في مسألة من أبسط المسائل العلمية، أو يتطلع للوقوف على خفايا توجُّهٍ أو ظاهرة، أو يطمح إلى سبر أغوار كتاب. بل لو طلبت إليه أن يكتب لك مقالاً صغيراً، أو رسالة موجزة، لتعثر به القلم في كل سطر مرات ومرات.

هذا ناهيك عن أن يكون لديه أبسط اطلاع على أساسيات دينه، وأقل معرفة بحقيقة وجوده وغاية مآله، بما يدفعه إلى أن يكون صاحب موقف أو رسالة، في هذه الحياة.

فأين نتائج هذه المفاهيم المغلوطة، والاعتبارات المنكوسة، من نتاج غرس محمد بن عبدالله ﷺ، ذلك الرسول النبي الأمي، الذي ربَّى - وفي بضع وعشرين سنة فقط - جيلاً قرآنياً ربانياً فريداً من نوعه على مدار تاريخ البشرية جيلاً أمياً، إلا أنه الجيل الذي وسع العالم علماً ومعرفة وتربية، كما وسعه خلقاً وأدباً وسلوكاً.

إننا من غير شك مع الدعوة الملحة إلى (إشاعة تعلم الكتابة) على أوسع نطاق، وبكل سبيل، وذلك باعتبارها مدرجاً من مدارج العلم، وضرورة دعوية، وحاجةً بشرية ضاغطة، وخاصة في هذا العصر، حيث اتسعت مجالات المعرفة، وتكاثرت فروعها، وتشعبت دقائقها، ودقت رموزها.

والإسلام شجع على (تعلم الكتابة)، وعمل على نشرها، وهيأ لذلك السبل، ويسر الأسباب، وأوجد الحوافز، وألهب العزائم والهمم، ما في ذلك ريب، ولا يختلف حوله اثنان.

ولكن الذي نريده أن نجعل الوصول إلى حقيقة العلم ولب

المعرفة، شغلنا الشاغل وهمنا الحافز، فلا ننشغل بتمجيد الوسائل وتضخيم الأدوات، عن تحصيل الأهداف والسعي وراء الغايات.

هذا إضافة إلى ضرورة إنصاف المفاهيم، وتحري الدقة في تحديد الدلالات، فنفرق مابين (الأمية) و (الجهالة)، فالأمية شيء، والجهالة شيءٌ آخر مختلف.

وإذا كانت (الجهالة) واحدة فقط، من المدلولات الكثيرة، التي يشملها مفهوم (الأمية) ذو الدلالات الواسعة العريضة، فإن هذا لا يبيح لنا بحال، أن نحصر مفهوم الأمية بهذا الحيز الضيق النكد المشين، متغافلين عما سواه، من دلالات أخرى. مشرقة ساطعة نيرة، دلت عليها نصوص الكتاب والسنة، وتضافر على ذكرها والتنبيه إليها المفسرون وشراح الحديث وأرباب اللغة.

إن حصر مفهوم (الأمية) بـ (الجهالة) هو طعن لمفهوم الأمية في الصميم.

والطعن بـ (الأمية) هو في حقيقة حاله طعن بشخص خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ الذي اصطفى له ربه سبحانه وتعالى أن يكون من دون جميع الأنبياء والرسل موصوفاً بأنه (النبي الأمي).

وهو طعن بالتالي بهذه الأمة الكريمة الفاضلة، والتي أراد الله تعالى لها كما وأراد لها ذلك رسوله الكريم ﷺ أن تكون على مر العصور والأزمان (الأمة الأمية)، التي تتميز بهذه الصفة، عن جميع أمم الأرض قاطبة، وإلى قيام الساعة.

وهذا هو الأمر، الذي نتمنى أن يتنبه له الغيورون، ويلتفت إليه المنصفون، فلا يقعوا - عن حسن نية وبراءة قصد - في شركه،

أو يرتكس أحدهم في حمأته الوبيئة الآسنة، مميزين للحق جاهرين بفصل الخطاب، لتظهر أمام أعين الجميع معالم الحقيقة جلية الحدود، بينة الصُّوى، واضحة الرسوم.

نعم إننا (أمة أمية) بنصوص الكتاب والسنة وشهادة واقع الحال، إلا أننا أمة العلم والمعرفة والهدى والنور، كنا كذلك وسنكون، ماشاء الله تعالى لنا أن نكون.